

دلالة أسلوب الاختصاص وعلاقته بالنداء

د. عتيق صالح علي القماطي
كلية الآداب صبراتة - جامعة الزاوية

مقدمة:

حرص النحاة أثناء انشغالهم في عملية التّقييد اللّغوي على أن تضم حدودهم النّحوية أساليب اللّغة وأنماطها التركيبية، ولكن الاستعمال اللّغوي واجههم بأساليب لم تتمكن دلالاتها المقيدة أن تشملها؛ لأنّه وفق ذلك الاستعمال تكون الأساليب غير ملزمة بالقواعد والحدود في جميع أحوالها؛ لكي تُبقي مساحة متاحة تسمح لأبنائها بممارسة أدائهم لها، بعيداً عن حدود تلك القواعد وضوابطها.

ومن هذه الأساليب التركيبية أسلوب الاختصاص الذي يُعدّ من الأساليب العربية المشهورة في كتب اللّغة، فقد حمله النّحويون على باب المفعول به؛ لظهور حركة الفتحة على الاسم المختص بعد تقدير الفعل الباعث على النّصب وهو (أخص أو أعني)، ما دفع بعض الباحثين إلى أن يربط بين هذا النمط الكلامي وبين أسلوب النّداء في بعض مسائله الشكلية، وهو أمر يراه الباحث يوقع تداخلاً ولبساً بين دلالة هذين الأسلوبين، وهذا البحث يسعى إلى تجلية هذا الأمر، وذلك بتحديد أسلوب الاختصاص وبيان قيمته الدلالية، وما يمتاز به من جهة تركيبه، وترتيب عناصره، وحركته الإعرابية، وأثر النبر والتنغيم في توجيه دلالاته، ومفارقته دلاليّاً لأسلوب النّداء. فجاء هذا البحث على النحو الآتي:

أولاً- مفهوم أسلوب الاختصاص، وعناصر تركيبه:

أ- مفهومه:

الاختصاص لغة: مصدر للفعل (اختصّ). يُقال: اختصّته بالأمر أي: أفردته وقصرته عليه دون غيره. يقول ابن منظور: "واختصّه أفردّه به دون غيره، ويُقال:

اِخْتَصَّ فُلَانٌ بِالْأَمْرِ وَتَخَصَّصَ لَهُ؛ إِذَا انْفَرَدَ وَخَصَّ غَيْرَهُ وَاخْتَصَّهُ بِبِرِّهِ، وَيُقَالُ: فُلَانٌ مُخِصٌّ بِفُلَانٍ، أَي: خَاصٌّ بِهِ وَلَهُ بِهِ خِصِيَّةٌ⁽¹⁾.

أما في الاصطلاح فهو: "قصر حكم أسند إلى ضمير على اسم ظاهر معرفة يذكر بعده معمول لأخص محذوفاً وجوباً"⁽²⁾، والباعث عليه فخر، أو تواضع، أو زيادة بيان، فالأول نحو: عليّ -أيها الكريم- يعتمد الفقير. والثاني نحو: إني -أيها العبد- فقيرٌ إلى عفو الله. والثالث نحو: نحن -العرب- أقرى الناس للضيف⁽³⁾.

ب- عناصر تركيبه:

يتألف أسلوب الاختصاص من العناصر الآتية:

1- ضمير متكلم يخصه أو يشاركه. فالأول نحو: أنا أفعل ...، والثاني نحو: نحن العرب...، وقد يكون ضمير خطاب نحو: بك الله نرجو الفضل، ولا يكون ضمير غائب⁽⁴⁾.

2- الاسم المختص، حصره النحاة في الأنواع الآتية:

- أن يكون (أيها) في التذكير، و(أيئها) في التأنيث إفراداً وتثنية وجمعاً، مع اختلاف النحاة في إعرابهما أو بنائهما، حيث ذهب الجمهور إلى أن (أيها، وأيئها) مبنيان على الضم في موضع نصب بفعل الاختصاص المحذوف وجوباً، في حين ذهب السيرافي إلى أن (أيأ) في الاختصاص معربة، وزعم أنها تحتل وجهين: أحدهما أن تكون خيراً لمبتدأ محذوف، والتقدير: أنا أفعل كذا هو أيها الرجل، والثاني: أن يكون مبتدأ والخبر محذوف، والتقدير: أيها الرجل المخصوص أنا المذكور⁽⁵⁾. كما "لا يجوز في باب الاختصاص إظهار حرف النداء مع (أي)؛ لأنه لم يبق فيه معنى النداء"⁽⁶⁾.

- أن يكون المختص محلى بـ(أل)، ولا خلاف في نصبه بين النحاة⁽⁷⁾، نحو: نحن -الأدباء- رسلُ الفكر.

- أن يكون مُعْرِفًا بالإضافة، نحو: قول الرسول-صلى الله عليه وسلم-: (نحن- معاشر الأنبياء- لا نُورث، وما تركناه صدقة)⁽⁸⁾. قال سيبويه: "وأكثر الأسماء دخولا في هذا الباب بنو فلان، ومَعَشَر مضافة، وأهل البيت، وآل فلان"⁽⁹⁾.
- أن يكون علماً وهو قليل، نحو: بك-الله- نرجو الفضل، ومنه قول رؤبة:
- بِنَا تَمِيمًا يُكشَفُ الضَّبَابُ⁽¹⁰⁾.

فالإسم المختص- وفق ما ذكر- لا يأتي نكرة، ولا اسم إشارة، ولا غيره⁽¹¹⁾.

3- جملة الاختصاص وهي موضع الفخر، أو التواضع، أو غير ذلك؛ فجملة (نرجو الفضل)، و(يُكشَفُ الضَّبَابُ) في المثالين السابقين هما جملتا الاختصاص. وعلى ذلك يكون للترتيب في هذا الأسلوب أهمية كبيرة في تنويع المعاني وتغيير الدلالات، إذ يُعَدُّ التزام ترتيب الكلمات عاملاً دلاليًا في جملة الاختصاص؛ يساعد على إيضاح معنى الاختصاص من فخر، أو تواضع، أو غيرهما من المعاني التي أراد المتكلم أن يفصح عنها. فالنظام الضمير في موقع الصدارة، وعدم جواز تقديم المخصوص، أو جملة الاختصاص عليه لِيُعَدَّ عنصراً دلاليًا يحدد معنى الجملة، ويقوم تركيب الأسلوب كله بأداء التعبير الانفعالي الذي يريد المتكلم التعبير عنه. يقول (ماريو باي) عن أهمية الترتيب في الجمل عامة: "قطفيفة تنظيم هذه الكلمات تصبح مهمة، وربما متحركة في المعنى كله"⁽¹²⁾.

ثانياً- العلاقة بين أسلوب الاختصاص والنداء:

يفهم من عبارات بعض النحاة أن أسلوب الاختصاص شبيه بأسلوب النداء، من ذلك ما ورد عند سيبويه في باب الاختصاص، إذ يقول: "هذا باب ما جرى على حرف النداء وصفاً له، ... ولكنه اختص، كما أن المُنَادَى مُخْتَصٌّ من بين أُمَّتِهِ، لأمرِك ونهيك أو خبرك، فالاختصاص أجرى هذا على حرف النداء"⁽¹³⁾.

ويؤيد ذلك أيضاً عبارة المبرد: "فإذا قلت: (اللهم اغفر لنا أيتها العصابة)، فأنت لم تدع العصابة، ولكنك اختصتها من غيرها؛ كما تختص المدعو"⁽¹⁴⁾.

فهما بذلك يتفقان على أن أصل النداء في بعض صورته اختصاص، وهو ما ذكره أبو علي الفارسي أن "كُلُّ مُنَادَى مَخْتَصٌّ، وليس كلُّ مَخْتَصٍّ مُنَادَى، ألا ترى أن قولك: (أَيَّتُهَا الْعَصَابَةُ) مَخْتَصٌّ وليس بِنْدَاءٍ"⁽¹⁵⁾.

ولعل من أوجه التشابه التي جعلت بعض النحاة يربطون بين الأسلوبين:

أ- المشابهة بين الاختصاص والنداء في استخدام (أيها، وأيُّها) في كلا الأسلوبين. قال الرضي: "ومما أصله النداء باب الاختصاص، وذلك أن تأتي بـ(أي) وتجريه مجراه في ضمه، والمجيء بهاء التنبيه في مقام المضاف إليه، ووصف (أي) بذي اللام"⁽¹⁶⁾.

ب- جعل معنى التوكيد من المعاني المشتركة بينهما أيضاً، قال الرضي: "وإنما نُقِلَ من باب النداء إلى باب الاختصاص لمشاركة معنوية بين البابين، إذ المنادى أيضاً مختص بالخطاب من بين أمثاله"⁽¹⁷⁾. يقول الأزهري في معرض حديثه عن الوجوه التي يشترك فيها المنصوب على الاختصاص مع المنادى: "والثالث: أن الاختصاص واقع في معرض التوكيد، والنداء قد يكون كذلك"⁽¹⁸⁾.

ج- التماثل بينهما في الحركة الإعرابية، فكلاهما فيه بناء على الضم كما في (أيها، وأيُّها)، وفيه علامة النصب، نحو: (يا خالدُ افعلْ كذا...) في النداء، و(نحن- العرب- نكرمُ الضيفَ) في الاختصاص. يقول الصبَّان: "إنَّ كلاً من الاختصاص والنداء يوجد معه الاسم تارةً مبنياً على الضم، وتارةً منصوباً"⁽¹⁹⁾. غير أن هذا التشابه لا يُعدُّ مبرراً للربط بين هذين الأسلوبين؛ لأنَّ لكل أسلوب الدلالة الخاصة به، وتتضح هذه المفارقة جلياً من خلال الوقوف على مفهومهما، وغرض كل منهما. إذ إنَّ مفهوم النداء هو: "إحضار الغائب، وتنبيه الحاضر، وتوجيه المعرض، وتفريغ المشغول، وتهيج الفارغ. وهو في الصناعة: تصويتك ممن تريد إقباله عليك لتخاطبه، والمأمور بالنداء ينادى ليخاطبه الأمرُ فصار كأنه هو المنادى"⁽²⁰⁾.

والغرض من حروف النداء "امتداد الصَّوت وتنبية المدعو، فإذا كان المنادى متراخياً عن المنادي، أو معرضاً عنه لا يُقبل إلا بعد اجتهاد، أو نائماً قد استنقل في نومه، استعملوا فيه جميع حروف النداء ما خلا الهمزة"⁽²¹⁾.

حيث يظهر معنى طلب الانتباه في جملة النداء في حرف النداء مذكوراً أو محذوفاً، وفي الأمر الطلبي الذي يأتي بعد حرف النداء، نحو قولك: (يا شاهد قل الصدق)، وهذه العناصر اللغوية في النداء لا تكون في جملة الاختصاص ولا تحمل معناه.

أما مفهوم الاختصاص-كما سبق ذكره- فهو: تخصيص حكم علق بضمير ما تأخر عنه من اسم ظاهر مُعرَّف، والباعث عليه فخر، أو تواضع، أو زيادة بيان⁽²²⁾.

فالأول نحو: عليّ- أيها الجواد- يعتمدُ الفقيرُ، ومنه قول الشاعر:

لَنَا مَعَشَرَ الْأَنْصَارِ مَجْدٌ مُؤْتَلٌ بِإِرْضَانِنَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ أَحْمَدًا⁽²³⁾.

والثاني نحو: إني- أيها العبدُ- فقيرٌ إلى عفوِ الله. ومنه قول الشاعر:

جُدْ بِعَفْوٍ فَإِنِّي أَيُّهَا الْعَبْدُ _____ دُ إِلَى الْعَفْوِ يَا إِلَهِي فَقِيرٌ⁽²⁴⁾.

والثالث نحو: نحنُ- العربُ- أقرى الناسِ للضيف، ومنه قول الشاعر:

إِنَّا بَنِي نَهْشَلٍ لَا نَدْعِي لِأَبٍ عَنْهُ وَلَا هُوَ بِالْأَبْنَاءِ يَشْرِينَا⁽²⁵⁾.

وعلى هذا المفهوم لا وجود لمعنى النداء لشخص ما، أو لفت انتباهه لأمر يريده المتكلم، وهذا الأمر قد تنبّه إليه بعض النحويين، منهم: أبو علي الفارسي عند شرحه لقول سيبويه: "هذا يجري على حرف النداء؛ يعني-أي سيبويه- أن ما اختُصّ قد يجري على حرف النداء، نحو: اللهم اغفر لنا أيُّتها العصابة، وأنا أفعل كذا أيُّها الرجل، ليس ينادي نفسه وإنما يخصها"⁽²⁶⁾.

وكذا قول الزمخشري: "وفي كلامهم ما هو على طريقة النداء ويقصد به الاختصاص لا النداء، وذلك قولهم: أمّا أنا فأفعل كذا أيُّها الرجل، ونحن نفعل كذا أيُّها القوم، واللهم اغفر لنا أيُّتها العصابة"⁽²⁷⁾.

وقول ابن يعيش أيضاً: "اعلم أن هذا النحو من الاختصاص يجري على مذهب النداء من النصب بفعل مضمر غير مستعمل إظهاره، وليس بنداء على الحقيقة"⁽²⁸⁾.

ولمّا كان الغرض من النداء شدّ انتباه المخاطب بالتصويت له لأمر يريد المتكلم، والاختصاص هو تخصيص حكم علق بضمير يتقدم على اسم؛ فإنّ القول بأنّ النداء اختصاص لا يتوافق مع المعطيات التركيبية والدلالية التي يتميز بها كل واحد منهما.

ويبدو للباحث أنّ ذلك راجع إلى النشأة الأولى لعلم النحو، حيث إنّ نظرة النحاة اتجهت في وضع القواعد النحوية إلى المبنى دون المعنى، فاعتمدوا على المشابهة اللفظية في تصنيف بعض الأبواب النحوية؛ فنتج عن ذلك خلاف بينهم في كثير من المفردات المتشابهة؛ ما أدى إلى خروج بعض الجمل في بعض الأحيان من بابها إلى باب آخر، وهذا ظاهر في اشتراك لفظة (أَيْهَا، وَأَيْتُهَا) في باين مختلفين، هما: النداء والاختصاص، وذلك على أساس معياري عماده المبنى الصرفي، والعلامة الإعرابية، فعُدّ الاختصاص نداء عند بعضهم، والنداء اختصاصاً عند بعضهم الآخر.

ويظهر أيضاً في ربط بعض النحاة بين النداء والاختصاص في المعنى؛ حين حكموا بأنّ في كل منهما معنى التوكيد. قال الرّضي: "إنّما نُقِلَ من باب النداء إلى باب الاختصاص لمشاركة معنوية بين البابين"⁽²⁹⁾، وقال الأزهري: "إنّ الاختصاص واقع في معرض التوكيد، والنداء قد يكون كذلك، كقولك لمن هو مُصَنِّعُ إِيكَ: كان الأمر كذا يا فلان"⁽³⁰⁾.

وما قال به بعض النحاة بوجود مشاركة شكلية ومعنوية بين النداء والاختصاص يحتاج إلى بحث، حيث إنّ النداء هو: شدّ انتباه المخاطب لأمر يريد المتكلم، وهذا المفهوم لا يوجد فيه معنى التوكيد، لا من جهة المبنى ولا من جهة المعنى، فالتوكيد باب نحوي معلوم، له تراكيبه وأقسامه، ليس للنداء فيها نصيب.

أمّا الاختصاص وإنّ لمُح فيه معنى التوكيد، فهو معنى ضمّني بعيد يحتاج الوصول إليه إلى تأويل قد يخرج تركيب الاختصاص من بابه ويصرفه عنه. فالمختص يتصدره ضمير يجانسه ويدل عليه لغرض بيان اختصاص مدلول ذلك الضمير من بين أمثاله بما نُسب إليه، كالفخر، أو التواضع أو لبيان عدد، أو نوع، أو جنس...، ولعلّ الأفضل لهذا المعنى أن يسمّى اختصاصاً بدلاً من أن يكون توكيداً.

وقد أدرك بعض النحاة عمق الخلاف البيّن بين أسلوب الاختصاص والنداء في دلالة كل منهما، فنصّوا في مؤلفاتهم على أوجه المفارقة بين الأسلوبين، يمكن أن نوجز ذلك فيما يأتي:

- من حيث اللفظ:

1- أنّ الاختصاص ليس معه حرف نداء لا لفظاً ولا تقديرًا، بخلاف النداء الذي لا يخلو من ذلك.

2- أنّ الاختصاص لا يقع في أول الكلام؛ بل في أثنائه، كما في: (إنّا -معشر- الأنبياء- لا نورث). أو بعد تمام الكلام، نحو: (أنا أفعل كذا أيّها الرجل)، و(اللهمّ اغفر لنا أيّتها العصابة)، أو بعد تمام الكلام كما في: أنا أفعل كذا أيّها الرجل.

3- يشترط في أسلوب الاختصاص أن يكون المقدم على المختص اسماً بمعناه في التكلم أو الخطاب، والغالب أن يكون المقدم على المخصوص ضمير تكلم يخصه أو يشارك فيه، وقد يكون المقدم ضمير خطاب كقول بعضهم: بك الله نرجو الفضل، ولا يكون ضمير غيبة.

4- العامل المحذوف في الاختصاص لم يعوض عنه شيء، وعوض عنه في النداء بحرف النداء؛ لأنّه نائب مناب الفعل (أدعو).

5- أنّ العامل المحذوف في الاختصاص هو فعل الاختصاص، وفي النداء فعل الدعاء.

6- ألا يكون المخصوص نكرة، ولا اسم إشارة، ولا موصولاً، ولا صلةً، ولا ضميراً، والمنادى يكون كذلك.

7- لا توصف (أي) في الاختصاص باسم الإشارة، وتوصف به في النداء.

- من حيث المعنى:

أجلها النحاة في ثلاثة فروق، هي:

1- أن الغرض من أسلوب الاختصاص تخصيص مدلوله من بين أمثاله بما نسب إليه بخلاف النداء. وهذا الفرق يمكن أن يستفاد منه على الاستدلال بأنَّ النداء لا معنى للاختصاص فيه؛ إنما هو لفت انتباه السامع وشد انتباهه إلى أمر يريده المتكلم منه.

2- أنه مفيد لفخر أو تواضع أو زيادة بيان، بخلاف النداء.

3- أن الكلام مع الاختصاص خبر، ومع النداء إنشاء⁽³¹⁾.

والقول بأنَّ النداء إنشاء قول لا خلاف فيه، أمَّا القول بأنَّ الاختصاص خبر ففيه وجهة نظر، حيث إنَّ النحاة حكموا بخبرية جملة الاختصاص بناء على نظرهم إلى المبنى دون المعنى، إذ لو تم النظر إلى المعنى؛ لتبين أنَّ مُنشئ جملة الاختصاص أراد أن يُعبّر على معنى نفسي يُفصح به عما يريد إظهاره مفتخراً، أو متواضعاً... وهذه المعاني لا يحق للسامع أن يقول للمتكلم فيها صدقت أو كذبت، كما في الأساليب الإنشائية الأخرى، كالتعجب، أو المدح، أو الذم. فأسلوب الاختصاص- كما يرى أحمد كشك- هو أسلوب يجمع بين الإنشائية والخبرية فطرفاً جملته الكبرى يحملان قيمة الإخبار، في حين المعرب على الاختصاص هو وعامله يحملان قيمة الإنشاء؛ لأنه- كما يرى النحاة- شبيه بالنداء، ولهذا فإنَّ السكتة التي تظهر في النطق بعد الضمير تقوم بدور واضح في تحديد أركانه، وبالاعتماد عليها نتمكن من فهم الوظائف النحوية لهذا الأسلوب، ففي حديث الرسول- صلى الله عليه وسلم-: (نحن معشر الأنبياء لا نورث)، فإنَّ السكتة بعد الضمير (نحن) وبعد كلمة

(الأنبياء) تُبَيِّن بوضوح أنَّ كلمة (معشر) منصوبة على الاختصاص، ولو لم تكن موجودة لتوهمنا في هذه الكلمة الإخبار⁽³²⁾.

ثالثاً- العامل في المخصوص وعلامته الإعرابية:

يرى النحاة أن المخصوص منصوب على المفعولية، والعامل فيه فعل محذوف تقديره: (أخص، أو أعني)، تقول: (نحن- العرب- نكرمُ الضيف)، أي: (أخص العرب)، وعلى هذا التقدير تكوّنت جملة فعلية، من فعل مع فاعل مستتر، ومفعول ظاهر، فوقعت ضمن جملة أخرى، وهي: (نحن نكرمُ الضيف).

ويبدو أن تفسير النحاة لعامل نصب المخصوص يقوم حول قولتهم المشهورة: (كل معمول لابد له من عامل). وهذا الأمر لا يستقيم مع القيمة الدلالية لأسلوب الاختصاص من وجهين:

الأول: أن حركة الفتحة على المخصوص ليست أثراً لعامل محذوف، كما يقدره النحاة؛ بل هو أثر تقتضيه دلالة المعنى، الذي يريد أن يفصح عنه المتكلم، ولما كان كثير من الأبواب النحوية تتشابه في تركيب ألفاظها وبناء جملتها، فقد جعلت الحركة الإعرابية أحد العناصر التي تساعد في التفريق بين معانيها، ولذلك من الضروري دراسة الكلمة في سياقها التركيبي دون تفسير الحركة الإعرابية على وفق نظرية العامل⁽³³⁾.

ومن المعلوم أن لهذه الحركات معاني في نفس العربي المتحدث بالعربية بالسليقة؛ لأنَّ "العرب قد نطقت على سجيبتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقامت في عقلها علله"⁽³⁴⁾.

وقد بين خليل عمارة القيمة الدلالية للحركة الإعرابية على المختص بقوله: "ولا علاقة للفتحة على الاسم الذي يلي الضمير بعامل محذوف تقديره: أعني أو أخص... وأنك إن أظهرت هذا العامل، فإنك- أي المتكلم- لا تحس بالفخر والاعتزاز الذي تجده عند عدم إظهار هذا الفعل المقدر، أنا أعني الجندي أحمي الديار، نحن

نخص المسلمين أقوياء بالإيمان، ولا يجد السامع من معنى الفخر والتعالي ما يجده في الجملة حال عدم ذكر هذا العامل⁽³⁵⁾، ثم يقرر عمائرة أنّ هذه الحركة الإعرابية (الفتحة) هي تعبير عن القصد والمعنى، وليست أثراً لتسليط عامل لفظي عليه⁽³⁶⁾.

وتظهر قيمة الحركة الإعرابية جلياً في تركيب آخر يماثل التركيب الجملي لأسلوب الاختصاص ويخالفه في الحركة الإعرابية التي تتأخر حركة الاسم المختص، وما يترتب عن ذلك من اختلاف دلالي لمعنى التركيبيين.

فعند مقارنة جملة: (نحن-العرب- نكرم الضيف) بجملة: (نحن العرب نكرم الضيف) فلا تجد فرقاً بينهما في البناء الشكلي، إلا في الحركة الإعرابية التي على كلمة (العرب)؛ فأدى ذلك إلى تغير كبير في المعنى الدلالي فيهما، ما جعل النحاة يدرجونهما في بابين مختلفين، حيث إن المتكلم عندما نطق بكلمة (العرب) بالضم- كما في الجملة الثانية- أراد بذلك نقل خبر فقط، أما إذا نطقها (العرب) بالفتح- كما في المثال الأول- فإن المعنى يتغير إلى معنى الاختصاص الذي قصد به المتكلم الإفصاح عن معنى الفخر والاعتزاز الذي يخالج مشاعره، فيكون تغير الحركة الإعرابية محققاً لهذا المعنى الذي يريد المتكلم التعبير عنه.

الثاني: يلزم على قول النحاة إن الاسم المختص منصوب بعامل محذوف كما في قولك: (نحن-العرب- نكرم الضيف)، فلو قدر المتكلم هذا العامل وأظهره بأن قال: أخصّ العرب؛ لفقد هذا الأسلوب قيمته الدلالية، واستحال أمر الإفصاح عن مشاعر الفخر أو غيره إلى إخبار يحتمل الصدق أو الكذب، ويكوّن كذلك مع المختص جملة تؤدي إلى اضطراب في الدلالة بين المعنى الذي يريده المتكلم والمعنى الذي آلت إليه الجملة بعد تقدير المحذوف⁽³⁷⁾، وهو ما أدى إلى اختلاف النحاة في الموقع الإعرابي للجملة المقدر: أهي جملة حالية؟، أو جملة معترضة؟، ولكل أثره في توجيه دلالة الجملة⁽³⁸⁾.

فتقدير العامل في البنية التركيبية لأسلوب الاختصاص يفقد التركيب مراده، ويتسبب بضياع القيمة الدلالة لهذا الأسلوب التي حرص عليها المتكلم خلال نطقه به.

ثم إنَّ أمثال تلك الأساليب لا يضرها مخالفة قواعد النحاة من العمل والعامل والحذف والتقدير؛ لأنَّ لها طريقاً عبّرت عنه بلغة العاطفة والانفعال. فالمتكلم إذا أراد أن يعتدّ بنفسه فرداً أو جماعة، فإنَّه يعمدُّ إلى تغيير حركة الاسم الذي يلي الضمير، من الضمة - التي كانت تحقق الإسناد بين الكلمة التي هي على آخرها، والضمير السابق - إلى فتحة⁽³⁹⁾؛ لتصبح الجملة (نحن العرب نكرم الضيف) الأمر الذي دعا النحاة إلى التقدير لتسوية النصب، ليكون التركيب بعد ذلك صالحاً للحمل على أقرب الأبواب النحوية إعراباً له.

رابعاً - دور النبر والتنغيم في دلالة أسلوب الاختصاص:

لا يخفى دور النبر والتنغيم في التفريق بين المعاني، إذ بهما نستطيع التفريق بين الجمل الخبرية والإنشائية، كما يساعدان المتكلم على الكشف عمّا يدور في خلجات النفس من انفعالات ومشاعر وأحاسيس.

فالنبر هو: "وضوح نسبي لصوتٍ أو مقطعٍ إذا قورن بقيّة الأصوات والمقاطع في الكلام"⁽⁴⁰⁾، وبأنَّه: "ازدياد وضوح جزءٍ من أجزاء الكلمة في السَّمع عن بقيّة ما حولها من أجزاءها"⁽⁴¹⁾.

ويرجع سبب هذا الوضوح إلى عنصرين اثنين:

الأول: يرتبط بظاهرة علوِّ الصّوت وانخفاضه، وذلك نتيجة زيادة كمّيّة الهواء المندفعة من الرئتين، والذي يؤدي بدوره إلى اتّساع مدىذبذبة الأوتار الصّوتية؛ فيعلو الصّوت لذلك.

الثاني: يرجع إلى التوتّر نتيجة التماس الذي يحدث بين أعضاء النطق في مخرج الصّوت⁽⁴²⁾.

أما التتغيم فهو: "رفع الصَّوْتِ وخفضه في أثناء الكلام، للدلالة على المعاني المختلفة للجملة الواحدة، أو الحركة الصوتية للكلام صعوداً وهبوطاً، يستعمل كـمميز دلالي"⁽⁴³⁾، ويرى تمام حسان بأنَّ النَّبْرَ يُعَدُّ من الظَّواهر السِّيَاقِيَّةِ، ومن قرائن التَّعليق اللَّفْظِيَّةِ في السِّيَاقِ، وهو الإطار الصَّوْتِي الَّذِي تنطق به الجملة في سياقاتها المختلفة، فهو يقوم بوظيفة التَّرْقيم في الكتابة، غير أنَّ التَّغْيِيمَ أوضح من التَّرْقيم في الدَّلالة على المعنى الوظيفي للجملة⁽⁴⁴⁾، ومن ثَمَّ فهو الوسيلة التي يمكننا بها التمييز بين معانٍ تشترك في مبنى واحد.

وقد أوضح (فندريس) أهمية التتغيم في التفريق بين القيم الدلالية للجمل المتماثلة في مبانيها قائلاً: "بعض الصيغ المتماثلة كل التماثل لا يتميز بعضها عن بعض في الغالب إلا بالنغمة"⁽⁴⁵⁾.

فقد تحذف أداة النداء قبل المنادى فتأخذ الكلمة حظها من التطويل والمَطِّ؛ فتكون النغمة وحدها قرينة وعلامة على النداء، كما يكون مستوى النغمة وأداء الصوت قرينة تميز النداء عن الاختصاص على هذا المثال، إذ إن المنادى يتمثل الأداء الصوتي عنده بنغمة مرتفعة عند مثل التصويت بالنداء، في حين أن المفتخر يلتزم مستوى صوتياً يختلف عنه في النداء ليلائم دلالة الشعور الذي يفصح عنه⁽⁴⁶⁾، وفي ذلك يقول تمام حسان: "قلولا النَّغْمَةُ لظل تعدد احتمالي المعنى قائماً. وهذا التعدد في احتمال المعنى دون مرجح لأحد الاحتمالات هو الذي يسمى اللبس"⁽⁴⁷⁾.

فالتتغيم يُعَدُّ عنصراً تحويلياً عند خليل عمايرة، حيث يدخل على الجملة التَّولِيدِيَّةَ فيحوِّلها من باب إلى باب، ومن معنى إلى معنى. فالجملة: كتب التلميذ الدرس، بالنغمة المستوية جملة فعلية تفيد الإخبار، وبالنغمة الصاعدة تتحول إلى الاستفهام، وبنغمة صاعدة جداً مع نبر إحدى كلمات الجملة تتحوَّل إلى جملة إفصاحية لتفيد الدهشة والاستغراب⁽⁴⁸⁾.

وعلى ذلك فالاختصاص أسلوب فخر وتعظيم، أصله التوليدي جملة تحويلية اسمية: (نحنُ العربُ)، ومعناها هنا الإخبار، نغمتها هي النغمة الصوتية المستوية؛ ولما كان المتكلم لا يُريد الإخبار في هذه الجملة؛ بل يريد الفخر والاعتزاز وجب عليه أن يغير الحركة الإعرابية للاسم الذي يلي الضمير من الضم إلى الفتح، وذلك لإظهار المعنى الجديد، وقد ترتب على ذلك انتهاء الإسناد بين الضمير والاسم الذي يليه - المخصوص - الذي أصبح مركزاً للفخر وبؤرة لمعناه في الجملة، وبذلك أصبحت الجملة بحاجة إلى مسندٍ لتصبح جملة تامة تحمل معنى يحسن السكوت عليه، فنتحول الجملة إلى تحويلية، فيكون تركيب جملة الاختصاص في نحو قولك: (نحنُ-العربُ- نكرمُ الضيف) على النحو الآتي:

فاعل في المعنى مقدم + موضع الفخر + فعل + مفعول به.

ويتبع هذا التغيير في النغمة الصوتية التي تصبح نغمة مرتفعة في أولها لتُعبّر عن الأهمية والعناية التي جاءت بالتقديم، ثم تعود لتسير في خطها الأصل⁽⁴⁹⁾. فالنتمة التي تلحق جملة الاختصاص لها دور مهم في التفريق بين معاني التركيبات المتشابهة ودلالاتها، فقولك: (أيُّها الرجل) تركيب مشترك بين النداء والاختصاص، وتعد التتمة هي الفيصل في التفريق بينهما في هذا التركيب، وعلى هذا فإنك عندما تقول: أيُّها الرجل أفعُلْ كذا، فإنَّ المعنى يدل على النداء والطلب. أما قول القائل: إنا أيُّها الرجل أفعُلْ كذا؛ فإنَّ المتكلم أراد أن يخص نفسه بالفخر أو التواضع، أو غيرهما، فهي على هذا جملة اختصاص.

الخاتمة:

يمكننا من خلال عرض موضوع دلالة أسلوب الاختصاص وعلاقته بالنداء تدوين بعض النتائج التي أسفر عنها هذا البحث، فقد تبين أن دلالة أسلوب الاختصاص تقوم على التعبير عن المعاني النفسية التي تجول في خاطر المتكلم والإفصاح عنها من فخر وتواضع وغيرها، وهذا الأمر يجعل أسلوب الاختصاص

د. عتيق صالح علي القماطي

أقرب إلى الإنشاء منه إلى الإخبار على عكس ما قرره أغلب النحاة بخبرية هذا الأسلوب، كما يُعدُّ التزام الترتيب بين عناصر أسلوب الاختصاص عاملاً دلاليّاً يساعد في الإفصاح عما يشعر به المتكلم من مشاعر، وتبيّن من خلال البحث أنّ العلامة الإعرابية على المخصوص ليست أثراً لعامل محذوف كما يقدره النحاة؛ بل هو أثر تقتضيه دلالة المعنى الذي يريد أن يفصح عنه المتكلم. كما أنّ أسلوب الاختصاص يختلف في دلالاته عن أسلوب النداء، فكل أسلوب له قيمته الدلالية الخاصة به، وإنّ تشابهاً شكلياً في بعض الصور، كما يُعدُّ النبر والتّغيم من الوسائل التي يمكننا بها التمييز بين القيم الدلالية للأساليب المتماثلة التي تشترك في مبنى واحد.

المرجع والهوامش

- (1) لسان العرب، لابن منظور، نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه علي شيري، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت- لبنان، ط1، 1992م: مادة (خصص).
- (2) حاشية الخصري على ابن عقيل، ضبط وتشكيل وتصحيح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر- بيروت، ط:1، 2003م. 676/2.
- (3) ينظر: شرح التصريح على التوضيح، للشيخ خالد الأزهرى، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العالمية ببيروت، ط:1، 2000م: 268/2.
- (4) ينظر: شرح الرضي على الكافية: 431/1، للرضي الاسترلابادي، تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي- ليبيا، ط:2، 1996م، شرح التصريح: 270/2، 271.
- (5) شرح التصريح: 269/2.
- (6) شرح الرضي: 431/1.
- (7) ينظر: شرح المفصل لابن يعيش، عالم الكتب، بيروت: 18/2، شرح التصريح: 191/2.
- (8) ينظر: السنن الكبرى، للنسائي، حقه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرنؤوطقدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط:1، 2001 م: 96/6.
- (9) الكتاب، لسبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط:3، 1988م: 236/2.
- (10) ينظر: ملحق ديوان رؤبة بن العجاج، اعتنى بتصحيحه وترتيبه: وليم بن الورد البروسي، دار ابن قتيبة للطباعة والنشر- الكويت: ص169. الكتاب: 234، 75/2.

- (11) ينظر: شرح الرضي: 432/1، همع الهوامع، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة- بيروت، 1998م: 30/3.
- (12) أسس علم اللغة، لماريو باي، ترجمة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب- القاهرة، ط: 2، 1983م: ص 52.
- (13) الكتاب: 231/2، 232.
- (14) المقتضب، للمبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، علم الكتب بيروت: 299/3.
- (15) التعليقة على كتاب سيوييه، لأبي علي الفارسي، تحقيق: عوض بن حمد القوزي، مطبعة الأمانة- القاهرة، ط: 1، 1991م، 261/1.
- (16) شرح الرضي: 431/1.
- (17) المصدر السابق وصفحته.
- (18) شرح التصريح: 270/2.
- (19) حاشية الصبان: 185/3.
- (20) الكليات لأبي البقاء الكفوي (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) قابله على نسخة خطية، ووضع فهرسه: عدنان درويش، ومحمد المضري، ط: 2، مؤسسة الرسالة بيروت، 1998م: ص 906.
- (21) شرح المفصل: 15/2.
- (22) شرح التصريح: 268/2.
- (23) لم أقف على قائله. ينظر: شرح شذور الذهب: ص 172، همع الهوامع: 31/3.
- (24) لم أقف على قائله. ينظر: شرح التسهيل، لابن مالك، تحقيق: عبد الرحمن السيد، محمد بدوي المختون، دار هجر للطباعة والنشر، ط: 1، 1990م: 434/3.

- (25) البيت لأبي مخزوم النهشلي، ينظر: الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، ط:3، 1997م: ص95.
- (26) التعليقة: 261/1.
- (27) المفصل في صنعة الإعراب، للزمخشري، تحقيق: علي بو ملح، مكتبة الهلال - بيروت، ط:1، 1993م: ص69، 70.
- (28) شرح المفصل: 271/1.
- (29) شرح الرضي على الكافية: 431/1.
- (30) شرح التصريح: 270/2.
- (31) ينظر: حاشية الخضري: 677/2، شرح التصريح: 270/2 - 272 .
- (32) من وظائف الصّوت اللغوي (محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي)، لأحمد كشك، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م: ص102.
- (33) أصول النحو العربي في نظر النحاة، ورأي ابن مضاء في ضوء علم اللغة الحديث، لمحمد عيد، عالم الكتب القاهرة، ط: 4، 1989م: ص230.
- (34) الإيضاح في علل النحو، لأبي القاسم الزجاجي، تحقيق: مازن المبارك، دار النفائس - بيروت، ط3، 1979م: ص66.
- (35) في نحو اللغة وتراكيبها، خليل عمارة، عالم المعرفة، جدّة ط:1، 1982م: ص165.
- (36) ينظر: المصدر السابق: ص165.
- (37) المصدر نفسه: ص164.
- (38) شرح المفصل لابن يعيش: 55/2.
- (39) في الإعراب ومشكلاته، لأحمد علم الدين الجندي، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد 46، 1980م: ص137.

- (40) مناهج البحث في اللُّغة، تَمَّام حَسَّان، دار الثقافة، الدار البيضاء- المغرب، 1979م: ص194.
- (41) اللُّغة العربيَّة معناها ومبناها، تمام حسان، دار الثقافة-الدار البيضاء: ص170.
- (42) ينظر: من وظائف الصوت اللغوي: ص53.
- (43) المدخل إلى علم اللُّغة، رمضان عبد التوَّاب، القاهرة، 1412هـ، ص106.
- (44) ينظر: اللُّغة العربيَّة معناها ومبناها: ص226.
- (45) اللُّغة، لفندريس، تعريب: عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، 1950م: ص109.
- (46) ينظر: في نحو اللغة وتراكيبها: ص164.
- (47) الخلاصة النحوية، تَمَّام حَسَّان، عالم الكتب، ط:1، 2000م، ص24.
- (48) ينظر: في نحو اللُّغة وتراكيبها: ص174.
- (49) ينظر: دراسات في علم اللُّغة، كمال بشر، دار المعارف- مصر، ط:9، 1986م: ص24، 25. في نحو اللغة وتراكيبها: ص164.